

لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية وعلاقته بالإيمان والعمران

■ ميكائيل لوفي

ما المراد بلاهوت التحرير؟ بالأساس هو خطّ ديني مسيحي يستلهم رؤاه من جملة من الكتابات ذات منحنى لاهوتي نضالي، تم تأليفها منذ عام 1971م من قِبَل مجموعة من رجال الدين المسيحيين، على غرار غوستافو غوتيريز من البيرو، وروبيم ألفز وهوغو آسمان وكارلوس ميستر والأخوين ليوناردو وكلودوفيس بوف من البرازيل، وجون سوبرينو وإغناسيو إيلاكوريا من السلفادور، وسغونديو غاليليا ورونالدو مونز من الشيلي، وبابلو ريتشارد من كوستاريكا، وجوزي ميغيل بونينو وخوان كارلوس سكانوني من الأرجنتين، وإنريك دوسيل من المكسيك، وخوان لويس سغونديو من الأوروغواي، لِنورد أسماء العناصر الأكثر شهرة من بين رموز هذا التوجه.

ذلك ليس مصادفة أن تظهر هذه الحركة في أمريكا اللاتينية، في جنوب القارة التي تفتّش فيها التباين الاجتماعي بشكل صارخ، وأين توالى، منذ تفجر الثورة الكوبية سنة 1959م، نضالات اجتماعية تطلعت إلى إرساء العدالة، دعمتها حركات ثورية بشكل متلاحق.

■ (Michael Löwy) عالم اجتماع برازيلي - فرنسي، مدير سابق في المركز القومي للأبحاث، وأستاذ في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس.



ولئن برزت اختلافات جمة بين آراء مجمل هؤلاء اللاهوتيين؛ فإننا نجد في سائر أعمالهم العديد من المحاور الرئيسة التي شكلت أرضية مشتركة ومنطلقاً جذرياً نابعاً من المعتقد التقليدي، كما أرسته الكنائس المسيحية، سواء منها الكاثوليكية أم البروتستانتية، ومنها:

- 1- تقرّيع أخلاقي واجتماعي للرأسمالية باعتبارها نظام حيف وجور، وبوصفها شكلاً من أشكال الخطيئة البنيوية.
- 2- توظيف أدوات التحليل الماركسية بقصد تفهم دواعي الفقر، والإحاطة بتناقضات الرأسمالية وبمختلف أشكال الصراع الطبقي.
- 3- خيار موالة الفقراء ومناصرة نضالاتهم في التحرر الاجتماعي الذاتي، والسعي الجاد من أجل إرساء العدالة الاجتماعية.
- 4- العمل على النهوض بالشرائح المسيحية المعدّمة في أوساط الفقراء، كشكل جديد من جمهور الكنيسة، والبحث عن نمط بديل لحياة الفردانية التي أملاها النظام الرأسمالي.
- 5- قراءة مستجدة للكتاب المقدس، تحوم أساساً حول جملة من الإصحاحات الواردة في سفر الخروج التوراتي، كنبراس للنضال من أجل التحرر لشعب يزرح تحت نير الاستعباد.
- 6- مجابهة الوثنية - لا الإلحاد - باعتبارها العدو الرئيس للدين؛ أي مناهضة أوثان الموت الجديدة المعبودة من قبل الفراعنة الجدد، ومن قبل القياصرة الجدد والهيروودسات الجدد (نسبة إلى هيروودس حاكم الجليل في عهد المسيح): مامون¹، والثروة، والقوة، والأمن الوطني، والدولة، والقوة العسكرية، و«الحضارة المسيحية الغربية».
- 7- نقد الثنائية اللاهوتية التقليدية باعتبارها نتاجاً للفلسفة الأفلاطونية الإغريقية، وبوصفها لا تمتّ بصلة للتراث الكتابي التوراتي، الذي يتمييز فيه التاريخ البشري عن المسار الإلهي ولا ينفصلان.

1- في الآرامية بمعنى مال الظلم، ووردت في الترجمة العربية للإنجيل «لا تقدروا أن تخدموا الله والمال (مامون)» متى 6: 24، لوقا 16: 13 (المترجم).

أولاً: المنشأ الاجتماعي للاهوت التحرير

كما سبق أن أعلن ذلك اللاهوتي البرازيلي ليوناردو بوف، إن لاهوت التحرير هو في الآن انعكاس لفعل سابق وتأمّل في دلالاته، أو بشكل أدق هو تعبير عن حركة اجتماعية واسعة، ظهرت في البدء مطلع الستينات من القرن الماضي، بشكل سبق الأعمال اللاهوتية الجديدة. حيث تضم هذه الحركة قطاعات معتبرة من جمهور الكنيسة، المتشكّل من طوائف الرهبان، والتنظيمات الدينية، والأساقفة، والحركات الدينية اللائكية، على غرار تجمعات العمل الكاثوليكي، والشبيبة الطلابية المسيحية، والشبيبة العمالية

لم تؤثر مسيحية التحرير بخطها اللاهوتي إلا في مجموعة ضئيلة من كنائس أمريكا اللاتينية: حيث بقي التوجه السائد - في الغالب الأعم - إما محافظاً أو معتدلاً

المسيحية، واللجان الكنسية الراعوية ذات الطابع الشعبي، مثل التكتلات الراعوية العمالية، والتكتلات الراعوية العاملة في مجال الزراعة، والتكتلات الراعوية الحضرية، والشرايح الكنسية المعوزة. فمن دون إيلاء اهتمام لمختلف الأنشطة العملية لهذه الحركات الاجتماعية - وهو ما يمكن أن نطلق عليه مسيحية التحرير - يتعدّر علينا فهم ظواهر اجتماعية وتاريخية مهمة في أمريكا اللاتينية، برزت خلال فترة

السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، على غرار المدّ الثوري في أمريكا الوسطى، في كل من نيكاراغوا والسلفادور، وكذلك بروز حركة عمالية وفلاحية جديدة في البرازيل.

لم تؤثر مسيحية التحرير بخطها اللاهوتي إلا في مجموعة ضئيلة من كنائس أمريكا اللاتينية: حيث بقي التوجه السائد - في الغالب الأعم - إما محافظاً أو معتدلاً. لكن تأثير تلك المسيحية ما كان هيناً أو عرضاً، لا سيما في البرازيل حيث رفض المؤتمر الأسقفي (CNBB) - برغم الضغوط القوية المتأتية من حاضرة القاتيكان وبشكل متكرر - إدانة لاهوت التحرير. ومن بين الأساقفة والكرادلة الأكثر شهرة في هذا التنظيم نجد هلدن كامارا من البرازيل، وباولو أرنز من البرازيل أيضاً، والمونسنيور روميرو من



السلفادور، والمونسنير مندوز أرسيو من المكسيك، والمونسنير سامويل رويز من المكسيك أيضاً.

ذلك أن مسار التأصيل اللاهوتي في الثقافة الكاثوليكية في أمريكا اللاتينية - وهو ما سيقود إلى بروز لاهوت التحرير - لم ينطلق من قمة الكنيسة ليسير نحو القاعدة، ولا من القاعدة الشعبية باتجاه القمة، ولكن من الهامش باتجاه المركز. فالشرائح أو القطاعات الاجتماعية في الحقل الديني الكنسي - التي ستغدو المحرك الفاعل في عملية التجدد - كلها ذات طابع هامشي أو متحدرة من الأطراف بالنسبة إلى المؤسسة: الجهاز الكنسي اللائكي¹ وأعوانه، والخبراء اللائكيون، والكهنة الأجانب، والتنظيمات الدينية. ففي بعض الحالات استولت الحركات على «المركز» وأثرت على المؤتمرات الأسقفية (لا سيما في البرازيل)، وفي حالات أخرى بقيت معزولةً على «هامش» المؤسسة.

ليس في البرازيل وفي الشيلي فحسب، حيث شاهدنا على مدار الستينات من القرن الماضي سياقاً من التأصيل اللاهوتي في بعض الأوساط المسيحية (مسّ طائفة الإكليروس أو طائفة اللائكيين)؛ بل وتحت أشكال مغايرة، نشبت أحداث مماثلة في بلدان أخرى: الأكثر شهرة من بينها حالة كاميلو توريس. فبعد إنشائه حركة شعبية مناضلة، انخرط في صفوف جيش التحرير الوطني (ELN) سنة 1965م، وهو جيش متشكّل من متمردين كولومبيين من أتباع فيديل كاسترو، لقي توريس حتفه في مواجهة مع الجيش سنة 1966، وقد كان لرحيله دور بارز في تأجيج الحماسة السياسية في صفوف المسيحيين في أمريكا اللاتينية.

لقد جاء كلّ هذا الغليان ضمن سياق من التجديد في أعقاب نتائج مجمع الفاتيكان الثاني (1962 - 1965م)، وهو ما انتهى بزعزعة مجمل أركان كنيسة القارة. فأثناء انعقاد مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية في مدلين خلال

1 - خطّ مدني في خدمة الكنيسة، يمثل همزة الوصل بين المؤسسة الدينية والمجتمع المدني، الغرض منه التحكم بمفاصل المجتمع (المترجم).

عام 1968م، تمّ تبني قرارات جديدة، وحدثت للمرة الأولى التنديد بالبنى السائدة الداعمة للجور، والظلم الاجتماعي، وانتهاك حقوق الشعوب وممارسة «العنف الممنهج»، ليس ذلك فقط؛ بل جرى الاعتراف (في بعض الحالات) بمشروعية العمل الثوري أيضاً، علاوةً على التضامن مع تطورات الشعوب «لتحرر من كافة أشكال القهر».

ضمن هذا السياق جاء ميلاد لاهوت التحرير. بدأ موضوع التحرير يشغل لاهوتيي أمريكا اللاتينية الأكثر تقدماً - غير المقتنعين «بلاهوت التنمية» الرائج في جنوب القارة - منذ أواخر ستينات القرن الماضي. وعلى سبيل

**قال غوتيريز إنه في
حضن التاريخ الإنساني
والزمني ينبغي أن
تتحقق العدالة
الاجتماعية والخلاص
ومملكة الرب.**

المثال نورد حالة اللاهوتي البرازيلي هوجو أسمان، الذي سبق أن تلقى تعليمه في فرانكفورت. فقد لعب دوراً بارزاً منذ سنة 1970م في حشد أولى العناصر لبلورة نقد مسيحي ذي طابع لاهوتي تحريري للتنمية الاقتصادية المستدامة. لكن بحلول عام 1971م، ومع صدور مؤلف غوستافو غوتيريز - اليسوعي البيروفي، الذي أنهى تحصيله العلمي في جامعتي لوفان وليون الكاثوليكيتين - كان المولد الفعلي

للاهوت التحرير. ففي مؤلفه المعنون بـ«لاهوت التحرير - السياقات»، سيطرح غوتيريز جملة من الأفكار الاحتجاجية، ستكون مدعاة لإثارة بلبلة في التصورات اللاهوتية داخل الكنيسة. في مستوى أول، ألحّ على ضرورة تهشيم الثنائية المتوارثة عن الفكر الإغريقي: فلا وجود لواقعين: أحدهما «زمني» والآخر «روحي»، أو تاريخين: أحدهما «مقدّس» والآخر «مدنّس». هناك تاريخ موحد فحسب، وفي حضن هذا التاريخ الإنساني والزمني ينبغي أن تتحقق العدالة الاجتماعية، والخلاص، ومملكة الرب. لا يتعلّق الأمر بترقّب الخلاص من أعلى؛ فالخروج التوراتي يبيّن لنا بشكل لا لبس فيه «أن بناء الإنسان عمل من صنعه، يتأتى تبعاً لنضاله السياسي التاريخي». كما أن مسار الخلاص يغدو مساراً جماعياً و«شاملاً» بعد أن كان خياراً فردياً

وخاصاً، حيث لا يتمثل الرهان في أن ينجو المرء بنفسه، بل في خلاص وتحرر شعب بأسره يزرع رهن الاستعباد. فليس الفقراء - ضمن هذه السياق - مجرد موضوع للشفقة أو هدفاً للإحسان؛ لكنهم - على غرار سائر المستضعفين من بني إسرائيل - صنّاع تحررهم. وفيما يتعلّق بالكنيسة، ينبغي أن تكفّ عن لعبها دور الشريك في جهاز السيطرة؛ متبعة التراث العظيم لأنبياء التوراة والنموذج الشخصي للمسيح، وأن تواجه الجبابة، وتندد بالظلم الاجتماعي.

ثانياً: إعمار الكون وتحديات الوثنية الجديدة

خلال العقود الأخيرة، دشّن لاهوت التحرير ورشات عمل جديدة، بتناوله بالتحليل مظاهر اضطهاد المرأة، وأشكال العنف والتمييز المسلّطة على تجمعات الزوج والسكان الأصليين، كما ضمّ إلى تلك المسائل تحديات التنوّع الثقافي والتعددية الدينية والحوار بين سائر المعتقدات، فضلاً عن المسألة البيئية. مستهلاً عمله بوضع الليبرالية الجديدة محل نقد لاهوتي وسياسي، باعتبارها الشكل الجديد الرائج في أمريكا اللاتينية لنظام مضطرب داخلياً ألا وهو الرأسمالية.

حيث لم يقتصر النقد الذي وجهه لاهوتيو التحرير إلى نظام السيطرة السائد على المجالات الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية؛ بل شمل أيضاً المجال اللاهوتي. فقد بدت الرأسمالية - ولا سيما في شكلها الليبرالي الجديد من منظورهم - شكلاً من أشكال الوثنية. سوف تتلخص هذه المقاربة - وللمرة الأولى - في مصنّف من إعداد «قسم الأبحاث المسكونية» (D.E.I.) التابع لسان خوسيه بكوستاريكا، والمنشور تحت عنوان: «نضال الأرباب. أوثان القهر والبحث عن الإله المحرّر»، الذي سيلاقي صدقاً واسعاً. ظهر المؤلّف سنة 1980م، وجرت ترجمته إلى ثمان لغات. وجهة النظر المشتركة التي تقاسمها الكتاب الخمسة - هوغو آسمان، وفرانز هينكيلامار، وجورج بيكسلي، وبابلو ريتشارد، وجون سوبرينو - تمّ عرضها في المقدمة. يتعلّق الأمر بقطيعة جذرية مع التراث المحافظ والرجعي للكنيسة،

ذلك التراث الذي عرض «الإلحاد»، منذ قرون، وهو ما كانت الماركسية الشكل الحديث من ضمنه بمثابة العدو الأكبر للمسيحية:

«فليست المسألة المحورية المطروحة اليوم في أمريكا اللاتينية الإلحاد؛ أي المسألة الأنطولوجية التي تطرح وجود الله...؛ بل تتمثل المسألة في الوثنية، في عبادة الآلهة المزيفة لنظام الاستغلال.... حيث يتميز كل نظام من أنظمة الاستغلال بهذا الشكل تحديداً بأنه يخلق آلهة وأوثاناً، تضي قدسية على الاضطهاد، وتناصب الحياة العدا... فعملية البحث عن الإله الحقيقي في هذه المعركة للآلهة تقودنا إلى رؤية

للأشياء تنزع نحو الصدام مع الوثنية، والرفض للآلهة المزيفة، والأوثان المميّية، وأسلحتها الدينية التي تروّج للموت. فالإيمان بالله المحرّر، ذلك الذي يكشف عن سرّه في نضالات الفقراء ضد القهر، هو ما يكتمل بشكل حاسم بنفي الآلهة الزائفة... فيغدو الإيمان من هذا الباب نقيضاً للوثنية»¹.

خلال العقود الأخيرة،
دشن لاهوت التحرير
ورشات عمل جديدة،
بتناوله بالتحليل مظاهر
اضطهاد المرأة، وأشكال
العسف والتمييز المسلّطة
على تجمعات الزوج
والسكان الأصليين

سوف تكون هذه الإشكالية موضوع تحليل معمّق ومستحدّث في الكتاب المشترك والمميز

لكل من هوغو آسمان وفرانز هينكيلامار المعنون بـ«وثنية السوق. أبحاث في الاقتصاد واللاهوت» (1989م). هذا الطرح المهم هو الأول من نوعه في تاريخ لاهوت التحرير، المنحاز ضمناً إلى معركة مناهضة النظام الرأسمالي، المصنّف في عداد الوثنيات؛ ذلك أن العقيدة الاجتماعية للكنايس لم تمارس - في مجمل الأوقات - سوى نقد أخلاقي للاقتصاد «الليبرالي»؛ أي الرأسمالي؛ في وقت يملي أيضاً - بحسب تأكيد هوغو آسمان - توفّر نقدٍ لاهوتيٍّ صرفٍ، يفضح الرأسمالية باعتبارها ديناً زائفاً. ولكن فيمّ تتمثل الروح الوثنية في السوق؟ وفق هوغو آسمان، تبرز في

Pablo Richard et al, *La lucha de los dioses*, San José de Costa Rica, DEI, 1980, p9.



اللاهوت المتلحف بالمعيار الاقتصادي ذاته، وفي الممارسة التقوية الوثنية اليومية حيث يتجلى «الدين الاقتصادي» الرأسمالي. كما تبرز في المفاهيم ذات الطابع الديني، التي نصادفها في أدبيات «مسيحية السوق»؛ مثلاً في خطاب رونالد ريغن، وفي كتابات التيارات الدينية للمحافظين الجدد، أو كذلك في مؤلفات «لاهوتيي المؤسسات» - مثل مايكل نوفاك - التي لها وظيفة تكميلية. فلاهوت السوق - منذ مالتيس وحتى آخر وثيقة صادرة عن البنك الدولي - هو لاهوت أضحوي متعسف، يقتضي من الفقراء أن يضحوا بحيواتهم على مذبح الأوثان الرأسمالية.

كان لأعمال «قسم الأبحاث المسكونية» التابع لسان خوسيه بكوستاريكا تأثير فاعل على المسيحيين الذين يشغلهم الهمم الاجتماعي، حيث ألهمت جيلاً جديداً من لاهوتيي التحرير. مثلاً، يعرض رجل اللاهوت الشاب جونج مو سونغ - وهو برازيلي من أصل كوري - في كتابه: «وثنية رأس المال وهلاك الفقراء» (1989)، رؤية نقدية جذرية من منظور أخلاقي ديني للنظام الرأسمالي العالمي، حيث تجبر مؤسسات - مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي - بموجب الدين الخارجي المشطّ ملايين الفقراء في العالم الثالث للتضحية بحيواتهم على مذبح «السوق العالمية»، الذي بات بمثابة الإله الجديد. ومما لا شك فيه أن الأمر - كما يؤكد سونغ في كتابه التالي: «اللاهوت والاقتصاد» (1994م) - لا يتعلق - كما هو الشأن في الوثنيات القديمة - بمذبح مرثي؛ بل بنظام يقتضي تضحيات بشرية باسم الإكراهات «العينية»، و«العلمية» المدنسة، وعلى ما يبدو غير الدينية.

على مدى السنوات الأخيرة تضافرت الأعمال النقدية لليبرالية الجديدة في الأوساط الدينية للاهوت التحرير، مع انتقادات المسألة البيئية، وكان رجل الدين ليوناردو بوف الرائد في هذا المجال. وكما نعلم، فقد أنهك الرجل بالموانع التي تسلّطت عليه من روما، سواء أكان ذلك عبر الطرد، أو بموجب ما لحقه من حرمان، مما أجبره على مغادرة التنظيم الفرنسيكاني وهجران الكنيسة، لكن ذلك لم يحل دون متابعة نشاطه كلاهوتي كاثوليكي.

غير أنه مع مطلع عام 1990م ستشهد مسائل البيئة اهتماماً متطوراً لديه، وسيطرح ذلك ضمن روح صوفية ذات منزع فرانسيسكاني، وضمن سياق نقدي جذري للنظام الرأسمالي. سوف يكون ذلك موضوع مؤلفه: «كرامة الأرض: البيئة بين صرخة الأرض وصراخ الفقراء»¹، وموضوع العديد من الأبحاث الفلسفية، والأخلاقية، واللاهوتية. وفق ليوناردو بوف، لقاء لاهوت التحرير مع قضايا البيئة هو نتاج معاينة، تتمثل في أن «نظام الهيمنة الذي يعتمد تكديس الثروة والتنظيم الاجتماعي هو المنطق نفسه الذي يقود إلى استغلال الطبقة العاملة، وإلى نهب الدول

أيضاً، وتدهور الطبيعة». وبهذا يأمل لاهوت التحرير في بلوغ قطيعة مع منطق سير هذا النظام، وهي قطيعة جذرية ترمي «إلى تحرير الفقراء المضطهدين والمنبوذين، ضحايا شره تكديس الثروة الموزعة بطريقة غير عادلة، وإلى تحرير الأرض، المتضررة الكبرى جراء النهب المنظم لثرواتها، وهو ما يهدد التوازن المادي والكيميائي والبيولوجي للكون بأسره». تنطبق ثنائية الاضطهاد/التحرير على الطبقات الواقعة رهن السيطرة والاستغلال، وعلى الأرض والكائنات الحية في آنٍ واحدٍ².

في مؤلفه «أخلاق الحياة» الصادر سنة (2000م)، يرصد ليوناردو بوف توازياً بين كافة أشكال الظلم، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهي جميعاً متأتية جراء العنف المسلط على العمال وعلى الطبقات المحرومة، وجراء الإجحاف الحاصل في الوسط البيئي، والذي هو عنف ضد الطبيعة، ضد الهواء، ضد الماء، بما يهدد بإتلاف سائر الكائنات الحية. المصدر المشترك

كان لأعمال «قسم الأبحاث المسكونية» التابع لسان خوسيه بكوستاريكا تأثير فاعل على المسيحيين الذين يشغلهم الهم الاجتماعي، حيث ألهمت جيلاً جديداً من لاهوتيي التحرير

1- Leonardo Boff, *Dignitas Terrae. Ecologie: cri de la Terre, cri des pauvres*, S. Paulo, Atica 1995.

2- Leonardo Boff, «Libertação integra: do pobre et da terra», in *A teologia da libertação, Balanço e Perspectivas*, S. Paulo, Atica 1996, p. 115, 124-128.



لذلك الحيف وهو البراديفم الرأسمالي الغربي، الذي يجد تعبيره الحالي في الليبرالية الجديدة وفي «دين رأس المال»، دين إضفاء الطابع الوثي على البضاعة، مع معابدها (البنوك)، وإكليروسها (الممولين)، وعقائدها ولاهوتها (المتكون من رجالات الاقتصاد). البديل هو عالم بيئي اجتماعي، والذي كان شيكو ماندرس - مؤسس تحالف شعوب غابة الأمازون، الذي اغتيل من قبل كبار الملاك سنة 1987م - أحد رواده؛ فقد أدرك أن العنف الاجتماعي المسلط على الأهليين والمزارعين، والعنف البيئي الموجّه نحو الغابة، يخضع كلاهما إلى الدوافع نفسها، ذلك العائد إلى التطور الرأسمالي المفرط. فالمعيار الجديد للحضارة ينبغي أن يتأسس على أخلاق الحياة وعلى التضامن الكوني¹.

نجد مقترحات مماثلة في أعمال جونغ مو سونغ أيضاً، تذهب إلى أن «النظام الاقتصادي الرأسمالي الحالي ليس فقط ظالماً، بل هو اقتصادي واجتماعي وبيئي لا يُطاق». فإتلاف أنواع بأسرها، وهلاك ملايين من البشر في الدول الفقيرة، هو بالنسبة للإيديولوجيات المهيمنة «ضريبة إلزامية للتطور الاقتصادي الذي يسمح بتحقيق شره الاستهلاك اللامحدود». ومن ثم، فمهمّة اللاهوت هي في نقد وثنية السوق وفي فضح أسطورة التقدم، التي تفضي في الآن نفسه إلى التضحية بالحياة البشرية، وإلى تبرير ما يحصل من ضرر بالوسط الطبيعي².

ثالثاً: مسيحية التحرير والالتحام بهموم الناس

ليس لاهوت التحرير مجرد مجموعة من النصوص فحسب؛ بل هو أيضاً ممارسة نضالية من أجل العدالة الاجتماعية في أوساط الطبقات المحرومة، من داخل الشعوب المضطهدة.

مثالٌ لافتٌ للانتباه متمثل في دور إحدى الكنائس المقرّبة من لاهوت التحرير في تشياباس في المكسيك في الوعي بالمشاكل الاجتماعية للسكان

1- Leonardo Boff, *Ética da Vida*, Brasília, Letra Viva 2000.

-1

2- Jung Mo Sung, *Sementes de esperança. A fé em um mundo em crise*, Petropolis, Vozes 2000.

-2

الأصليين. وكما نعرف نشب خلال شهر يناير من عام 1994م تمرد مسلح لآلاف من الهنود الحمر، بقيادة منظمة لا تزال غير معروفة إلى الآن، أُطلق عليها اسم جيش زاباتستا للتحرير الوطني (EZLN). تم وصف المتمردين من قبل وسائل الإعلام والحكومة المكسيكية بالتحريريين، على اعتبار أنهم استلهموا رؤاهم من لاهوت التحرير، (أو مخترقون من قبل اليسوعيين)، في الوقت الذي جرى فيه نعت المونسنيور سامويل رويز - أسقف سان كريستوبال دي لا كاساس في تشياباس - بأنه «متمرد باسم الرب». كلا الاتهامين مجافٍ للصواب، فما هو الدور الحقيقي للكنيسة التقدمية في تشياباس في نشأة حركة زاباتستا؟

ليس لاهوت التحرير مجرد مجموعة من النصوص فحسب؛ بل هو أيضاً ممارسة نضالية من أجل العدالة الاجتماعية في أوساط الطبقات المحرومة، من داخل الشعوب المضطهدة

المونسنيور سامويل رويز - الذي سبق أن تابع تعليمه في الغريغورية في روما، الجامعة البابوية الشهيرة - كان قد حلّ بتشياباس ليتولى مهمات أبرشية سان كريستوبال دي لاس كاساس في مطلع الستينات من القرن الماضي. بعد مشاركته في مؤتمر مادلين سنة 1968م، شغل طيلة سنوات مهمة المكلف بقسم الإرساليات لكونفدراليات أساقفة أمريكا اللاتينية (CELAM). وتحت تأثير لاهوت التحرير، نشر

خلال عام 1975م كتاباً بعنوان «اللاهوت الكتابي للتحرير»، خلع فيه على السيد المسيح لقب النبي الثائر. أُتيحت لي فرصة اللقاء بالمونسنيور رويز في مطلع الألفية الثالثة وطرحْتُ عليه السؤال التالي: «هل كنتم من أتباع لاهوت التحرير؟»، كان جوابه: «أجل، بالطبع؛ لكن المهم بالنسبة لي ليس اللاهوت بل التحرير».

وبمساعدة اليسوعيين، والدومنيكان، وبعض التنظيمات الدينية النسوية، خاض المونسنيور سامويل رويز - على مدى سنوات - عملاً تربوياً مثابراً وضع نصب عينيه الشرائح الشعبية. عبر توظيف شبكة واسعة من المرربين الدينيين من السكان الأصليين، بلغت أعدادها 7800 نفر و 2600



جماعة محلية تم إنشاؤها. أسهمت بقوة في توعية الأهالي - من خلال مساعدتهم - في التعرف على حقوقهم والعمل من أجل الدفاع عنها، وخلال عام 1974 نظم المونسنيور رويز - بمناسبة ذكرى مرور خمسة قرون على ميلاد برتولومي دي لاس كاساس - فعاليات المؤتمر الأول للسكان الأصليين في تشياباس، شارك فيه ألفان من ممثلي الهنود الحمر. شكّل المؤتمر نقطة انطلاق لمسار طويل من التنظيم الذاتي لتجمعات المايا: لم تكن هناك منظمة شعبية في تشياباس حتى تسعينات القرن الماضي، لا تقر بانتسابها لتلك الحركة المتولدة عن ذلك المؤتمر¹.

أثارت تلك الأنشطة انتقادات حادة للمونسنيور رويز من قبل الجمعيات المحلية لكبار الملاك والمربين، والحكومة المكسيكية، والسفير البابوي. وأثناء زيارة البابا إلى المكسيك سنة 1993م شُنّت حملة قوية لطرده «مشيري الشغب»، وأعلن الفاتيكان نيته في حلّ هذه المسألة. بُعيد ذلك بقليل (يناير من عام 1994م) اندلعت انتفاضة حركة زاباتيسا ضد الحكومة المكسيكية، لكن الحكومة فشلت في إخماد تلك الانتفاضة، ما أجبرها على إرسال دعوة إلى المونسنيور رويز للتوسط في المفاوضات مع جيش زاباتيسا للتحرير الوطني.

المونسنيور رويز رجل مسالم لم يدعُ يوماً إلى التمرد، ومن الجلي أنه لم يكن هو - ولا أصدقاؤه أيضاً من اليسوعيين أو الدومينيكان - ممن نظّموا الانتفاضة؛ بل تولى مناضلون ماركسيون - ما كانت خلفيتهم مسيحية بل ثقافة المايا - إنشاء جيش زاباتيسا للتحرير الوطني. لكن ليس من الصواب أيضاً الادعاء أن عمل التربية، والتسيير الذاتي، والتوعية، الذي تولاه الأعوان الراعويون، والمربون من الهنود الأصليين في أبرشية سان كريستوبال دي لاس كاساس هو ما هيأ الأجواء المناسبة لظهور حركة زاباتيسا، التي ينحدر كثير من مناضليها من الجماعات المسيحية المعدّمة.

1 - انظر المقابلة مع أندري أوبري، مؤرخ وموثق أرشيف في أبرشية سان كريستوبال دي لاس

كاساس في: Bulletin de l'Espace Barthélémy de Las Casas, n° 3, Mai, 1996

ينطبق الأمر نفسه على انتفاضة أخرى للسكان الأهليين، عرفت حضوراً أقل على المستوى الإعلامي لكنها مهمة، حدثت في الإكوادور خلال شهر يونيو من عام 1994م. فعلى مرّ السنوات عمل التيار التقدّمي في الكنيسة، ممثلاً في المونسنيور ليونيداس بروأنو، أسقف ريوامبا (تشمبوراو) - المعروف باسم أسقف الهنود الحمر - بالتضامن مع جماعات الكتشوا، وبمعاوضة 1300 عون من رجال الدين، شكّل شبكة نشيطة من الرابطات الأهلية، والمدارس، والفرق الطبية، والمراكز الثقافية، مع دعم تكوين حركة هنود تشمبوراو (MICH)، خلال عام 1982م، وفي مرحلة لاحقة الفيدرالية الوطنية لهنود الإكوادور (CONAIE). رفض المونسنيور بروأنو وأتباعه النموذج الرأسمالي للتنمية، جراء ما يُلقّقه من ضرر بالثقافة وبمجتمعات الأهليين؛ وقد أسهمت تلك الأنشطة في بث الوعي بين جماعات الكتشوا، وفي تشجيعهم على المطالبة بحقوقهم، ناهيك عن بث الحماسة في أوساطهم من أجل الدفاع عن أراضيهم.

خلال شهر يونيو من عام 1994م سنّت الحكومة الإكوادورية قانوناً فلاحياً ليبرالياً، منحت بمقتضاه ضمانات واسعة لأصحاب الملكية الخاصة، وألغت أي توزيع محتمل للأراضي في المستقبل

خلال شهر يونيو من عام 1994م سنّت الحكومة الإكوادورية قانوناً فلاحياً ليبرالياً، منحت بمقتضاه ضمانات واسعة لأصحاب الملكية الخاصة، وألغت أي توزيع محتمل للأراضي في المستقبل؛ كما انسأقت الحكومة باتجاه التفريط في الأراضي العمومية فضلاً عن خصخصة المياه. تحركت الحركتان الأهليتان - MICH و CONAIE - إلى جانب تعاضديات ونقابات المزارعين الصغار ضد هذا القانون، ولقيت مساندة من قبل المونسنيور فيكتور كورال (خليفة المونسنيور بروأنو) وكذلك من قبل «كنيسة الفقراء».

على مدى أسبوعين، عاشت المناطق الريفية في الإكوادور أجواء من الانتفاضة: قطع الطرق، واجتياح القرى، وتواصل الاحتجاجات. حاول الجيش عبثاً اجتثاث الحركة بإيقاف قادتها، وأفضل محطة راديو الكنيسة التي تدعم الأهليين، وإرسال وحدات لفتح الطرقات؛ لكن أمام

حركة الاحتجاج الواسعة أُجبرت الحكومة على التراجع، وأدرجت تحويرات جوهرية على القانون الفلاحي¹.

من الخطأ الادعاء أن ثورة الهنود الحمر كان يقودها رجال دين، أو هي من تدير الكنيسة التقدمية، لكن من الصواب القول: إن مسيحية لاهوت التحرير - ممثلة في المونسنيور بروأنو، وخلفه، ورجالات من الكنيسة - كانت عاملاً فعالاً في تبلور وعي جديد وفي ظهور رغبة في التنظيم الذاتي بين جماعات الكتشوا.

أثناء فترة اعتلاء البابا يوحنا بولس الثاني سدة البابوية ثم خلفه البابا بنديكتوس السادس عشر (راتسينغر)، شهد لاهوت التحرير حملات قمع ومنع وإبعاد. عانى كذلك من المنافسة، في أوساط الشرائح الفقيرة، من كنائس بنتكوستالية جديدة (خمسينية)، أحياناً محافظة، استلهمت «لاهوت الرخاء» المناصر للرأسمالية. أجل تراجع تأثيره في بعض البلدان، ومع ذلك في بلدان أخرى - مثل البرازيل - لا يزال يحافظ على وجود مهم. ففي أحضان هذه الحركة الاجتماعية الدينية الواسعة التي نستطيع أن نطلق عليها «مسيحية التحرير»، التي تستوعب في أحضانها الشرائح الدنيا، ورجال الدين الشعبيين، والحركات اللائكية (JUC, JOC) أو كذلك شبكات على غرار «الإيمان والسياسة»، بقيادة اللاهوتي الدومينيكاني فراي بيتو، الذي يحشد آلاف الأتباع في شتى أرجاء البلاد. أو كذلك كونفدرالية أساقفة البرازيل النافذة (CNBB)، المعنية بالدفاع عن مجال الأخلاق الجنسية (موانع الحمل، الطلاق، الإجهاض) ضمن خط محافظ، والتي تتخذ أحياناً مواقف جد متقدمة بشأن المسائل الاجتماعية، كما الشأن فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي، وضبط الأجر الأدنى، ورفض اتفاقات التبادل الحر مع الولايات المتحدة الأمريكية أو تسديد الدين الخارجي؛ حول كل هذه المسائل، فهي تتموضع بشكل جلي على يسار الحكومة التي يقودها حزب العمّال.

1- انظر المقال الجيد لماوريس لوموان المنشور في صحيفة «لوموند ديبلوماتيك»:

Maurice Lemoine, «La Révolte très Politique des Indiens d'Equateur», Le Monde Diplomatique, Novembre, 1994, pp. 18-19.

ومن ناحية أخرى، يُعدّ المسيحيون الذين لهم التزامات اجتماعية أكثر التشكيلات نشاطاً والأبرز حضوراً في الحركة المناهضة للعلومة الليبرالية في البرازيل، البلد الذي استضاف في مطلع عام 2000م الاجتماعات الأولى للمنتدى الاجتماعي العالمي، ولكن ليس في البرازيل فحسب. أحد الوجوه الناشطة في المنتدى الاجتماعي العالمي شيكو ويتاكر، هو عضو في لجنة العدالة والسلام في المؤتمر الوطني لأساقفة البرازيل (CNBB) وهو من المنتمين إلى هذه الحركة، كذلك القس البلجيكي فرانسوا هوتار - صديق وأستاذ كاميلو توريس - هو أحد الوجوه الفكرية المؤثرة في المنتدى أيضاً.

**أثناء فترة اعتلاء البابا
يوحنا بولس الثاني سدة
البابوية ثم خلفه البابا
بنديكتوس السادس عشر
(راتسينغر)، شهد لاهوت
التحرير حملات قمع
ومنع وإبعاد**

كما يُعدّ رجلا الدين البارزان في لاهوت التحرير - ليوناردو بوف وفراي بيتو، وكلاهما من البرازيل - من بين الرواد والملهمين للحركة المناهضة للعلومة الليبرالية؛ حيث يشارك الرجلان بشكل نشيط - عبر الكتابة والخطب - في تنشيط «حركة الحركات» وفي لقاءات المنتدى الاجتماعي العالمي. فعلاوة على تأثيرهما القوي في البرازيل، حيث إن كثيراً من مناضلي الحركات الاجتماعية - كالتقابات والمزارعين الذين ليس لديهم أراضٍ (MST)، والحركات النسوية - هم متحدرون من جماعات كنسية شعبية (CEBs) تقرر بانتمائها إلى لاهوت التحرير، فإن كتاباتهما تجد رواجاً لدى مسيحيين في بلدان أخرى في أمريكا اللاتينية وفي العالم.

تيارات المناضلين المسيحيين التي تشارك في الحركة المناهضة للعلومة شديدة التنوع - منظمات غير حكومية، مناضلون في نقابات أو في أحزاب يسارية، تنظيمات مقرّبة من الكنيسة - ولا تتقاسم الخيارات السياسية ذاتها. مع ذلك فإنّ مجملها تشترك في الخطوط الكبرى للاهوت التحرير، كما تبلور مع رجال الدين ليوناردو بوف وفراي بيتو وهوغو آسمان، بل أيضاً كما يُمارس من قبل أساقفة مثل توماس بلديونو



وهيلدر كامار، وييدرو كزالديغا وغيرهم ذائعي الشهرة أو معروفين بدرجة أقل، وتسهم في النقد الأخلاقي والاجتماعي والبيئي للرأسمالية بقصد العمل لأجل تحرير الفقراء.

انتخاب البابا فرانسيس (برغوليو) من أمريكا اللاتينية (الأرجنتين) ربما سيمهّد الطريق لخلق ظروف ملائمة في حضان الكنيسة الكاثوليكية؛ لتطوّر لاهوت التحرير. فالدعوة الموجهة لغوستافو غوتيريز للالتقاء مع البابا فرانسيس في القاتيكان يمكن أن تكون بادرة لطّي صفحة الماضي وتدشين مرحلة جديدة¹.

ترجمة: عزالدين عناية

1 - تمّ اللقاء بدعوة من البابا في الحادي عشر من سبتمبر من العام الماضي (المترجم).